أثر البديع في البحث في إعجاز القرآن

د. حمود يونس*

الملخص

تنوعت نظريات العلماء في إعجاز القرآن، وتعددت آراء الباحثين في إثبات الإعجاز والبرهنة عليه، وإقامة الأدلة على وجوده في البيان الإلهي، ولعل الرأي الذي يفيد من مقومات اللغة، ويهتم بدراسة العناصر التعبيرية المشكلة للنص، ويعتمد على البلاغة بعلومها المختلفة، وإمكانياتها الفنية والجمالية والتأثيرية الواسعة في النصوص، والنظر في تأليف النص وأسلوبه وصياغته ونحو ذلك، يعدُّ أقوى الآراء في إثبات الإعجاز، وأكثرها وجاهة وقبولًا وانتشارًا على مر الأيام، وتوالي العصور، وذلك لانسجامه وتفوق الأمة في جانب اللغة والبلاغة عموما في زمن نزول المعجزة القرآنية.

ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث، الذي سيسعى إلى الوقوف على جانب من جوانب الإعجاز التي تناولها العلماء في كتبهم، وتناولوها في مخاطباتهم، وهو بيان أثر البديع في البحث في إعجاز القرآن، من خلال الوقوف على ثلاثة كتب كان لها أثرها الواضح في الدرس البلاغي عمومًا، وفي إثبات الإعجاز القرآني وإقامة البراهين والأدلة عليه خصوصًا، ولا سيَّما الثاني والثالث منها، وهي: كتاب (البديع) لعبدالله بن المعتز (296هـ)، وكتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني (403هـ)، وكتاب (بديع القرآن) لابن أبي الإصبع المصري (654هـ).

* جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

The Effect of Metaphors In the Wondrous Nature of the Holy Quran

Dr. Hammoud Younes**

Abstract

Scholars' theories on the wondrous nature of the Holy Quran vary. Researchers views in proving and attesting the inimitability of the Quran with evidence and divine eloquence are various. The strongest view in proving this wondrous nature is the one which benefits from the constituents of language; studies the expression elements that form the text; depends on the different sciences of rhetoric with its technical, aesthetic, and wide impact inside the texts; as well as the composition of the text, its style, phrasing and so on. This opinion is also considered the most acceptable, notable and widespread over the days and ages because of its harmony with the superiority of the nation in terms of language and rhetoric in general when the inimitable Holy Quran was sent down. This has led to the theme of this research which will highlight one of the aspects of the wondrous nature of the Holly Quran which the scholars have dealt with in their books and correspondences, which is clarifying the effect of metaphor on the wondrous nature of the Quran. The research does so by discussing three books that have had a clear impact on the rhetoric study in general and on proving the wondrous nature of the Holy Quran through proof and evidence in particular, especially in the second and third book. These books are *The Science of Metaphor* by Abdullah Ibn Al Muataz, 396 A.H.; *The wondrous Nature of the Quran* by Al Baqlani, 403 A.H; and *The Science of Metaphor in Quran* by Ibn Alisbaa Al Masri, 654 A.H.

** Damascus University, Faculty of Arts, Department of Arabic Language.

بدأ الاهتمام بالقرآن الكريم قراءة وتفسيرًا وتأويلًا منذ بدء نزوله على النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم، وأظهر القوم إعجابهم بهذا الأسلوب البياني الجديد، الذي لم يعهدوه من قبل، ولم يألفوه فيما كان منتشرًا بين ظهرانيهم من فنون القول، وأساليب الخطاب، كالشعر والخطابة وسجع الكهان وغير ذلك مما كانوا يعرفونه ويمارسونه ويتواصلون من خلاله فيما بينهم، واستمر هذا الاهتمام منذ ذلك الوقت إلى يوم الناس هذا، وسيبقى إلى يوم يبعثون.

وكان هذا الكتاب الإلهي معجزة النبي محمد صلى الله عليه وسلم التي تحدى بها الإنس والجن على حد سواء، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بمثل سورة واحدة من سوره، وقد ظهر هذا التحدي في مواضع كثيرة من القرآن، فقال تعالى: " قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتونَ بمثلِهِ ولو كان بعضُهمْ لبعضٍ ظهيرًا"[1]، وقال سبحانه: " وإنْ كنتُمْ في رَيْبٍ مما نزَّلْنا على عَبْدنا فَأْتوا بسورةٍ من مثلِهِ وادْعُوا شهداءَكمْ من دونِ الله إنْ كنتُمْ صادقين"[2].

ومن هنا فقد بدأ العلماء يدرسون هذا الإعجاز، ويبحثون عن أسراره، ويفتشون عن خفاياه، فظهرت آراء ونظريات كثيرة في ذلك، فكان منها القول بالإعجاز الغيبي، والإخبار عن أمور لم تقع، ومنها الإخبار عن قصص الماضين، ومنها ما ذهب إلى أنَّ الإعجاز في الصرفة، أي إنَّ الله صرف الناس عن أن يأتوا بمثل القرآن، والنسج على منواله، وغير ذلك من نظريات كثيرة ومتنوعة[3].

وظهرت في العصر الحديث نظريات جديدة في الإعجاز، أفادت من التطور العلمي الذي حدث في ميادين العلم المختلفة، فتحدث الناس عن الإعجاز العلمي، والإعجاز العددي، والإعجاز الطبي، وغير ذلك من أنواع الإعجاز التي لم تكن معروفة لدى القدماء، بسبب نقص المعطيات العلمية والحضارية والتقانية[4].

والحق أنَّه مهما تنوعت النظريات في إعجاز القرآن، واختلفت الآراء في بحث أسبابه، وإقامة الأدلة والبراهين عليه، فإنَّ السبب الأهم الذي يكاد يجمع عليه العلماء والباحثون في القديم وفي الحديث، هو أنَّ إعجاز القرآن يكمن أولًا وقبل كل شيء في لغته وبيانه وفصاحته وبلاغته، وذلك لأنَّ العرب كانوا متفوقين في هذا الجانب في زمن

[1]- الإسراء/ 88.

[2]- البقرة/ 23.

[3]- انظر: أحمد بدوي، أحمد: الحديث عن النظريات المختلفة في الباقلاني: إعجاز القرآن في القديم والحديث في كتاب: من بلاغة القرآن، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، د.ت، ص:46-53؛ وكتاب: حسين، عبد القادر: القرآن- إعجازه وبلاغته، مطبعة الأمانة، مصر، د. ت، ص: 63 وما بعدها.

[4]- انظر في ذلك كتاب: هيتو، محمد حسن: المعجزة القرآنية- الإعجاز العلمي والغيبي، ص: 147وما بعدها.

نزول القرآن، وكانوا قد وصلوا إلى درجة عالية من الارتقاء في لغتهم، وأساليب خطابهم، ومن هنا كان من البديهي أن يتحداهم القرآن بما هم متفوقون فيه، وبارعون في أدائه، ومتمكنون من أدواته وفنونه وأساليبه وطرائقه، وذلك لأنَّ أهمية التحدي عمومًا تكمن في أن تتحدى الآخر بما يمتلكه ويتقنه، لا بما يفتقده ولا يجيده.

ومن هنا أخذت النظريات التي تتحدث عن لغة القرآن وبلاغته وفصاحته تترى عند العلماء، فتحدثوا عن نظمه وأسلوبه وتأليفه وغير ذلك مما يتصل بجوانب اللغة فيه، ولعل الحديث عن بلاغة القرآن كان بعنوان البديع بمفهومه العام والشامل والواسع الذي نجده عند النقاد والبلاغيين منذ أن بدأ الحديث عن البديع وفنونه وقضاياه المختلفة، وقبل أن تتميز علوم البلاغة بعضها من بعض على يدي السكاكي (636هـ) في القرن السابع الهجري في كتابه (مفتاح العلوم) الذي قسم البلاغة إلى علومها الثلاثة المعروفة: البيان والمعاني والبديع، ولكن قسمة السكاكي هذه لا تعني أنَّ النقاد والبلاغيين قد أخذوا بها، ووافقوا عليها، واتبعوها في كتبهم جميعًا، فقد راقت هذه القسمة لبعضهم فاتبعها، ولم ترق لبعضهم الآخر فأنكرها وبقي على العهد القديم، وعلى المفهوم العام للبديع[1].

وقد وقف غير عالم من العلماء على البديع، وبيان أثره في البحث في إعجاز القرآن، وإثباته لمن يشك فيه، والبرهنة عليه لمن يجحده أو ينكره، ولما كانت الإحاطة بآراء هؤلاء العلماء جميعًا أمرًا يصعب إدراكه، ومسألة يضيق عنها بحث بل بحوث، فقد رأيت أن أقف على آراء ثلاثة من النقاد والبلاغيين الذين أدلوا بدلائهم في هذه المسألة، وكانت لهم آراؤهم المختلفة، ومواقفهم المتباينة في هذا الجانب، **أولهم ابن المعتز(296هـ)** الذي يعدُّ أول من ألف كتابًا بعنوان البديع، جمع فيه فنونه وأساليبه حتى عهده، ونبه فيه على وجود البديع في القرآن وفي غيره من أساليب القول عند العرب القدماء منهم والمحدثين، **وثانيهم الباقلاني (403هـ)** في كتابه **(إعجاز القرآن)** الذي رفض أن يكون البديع سببًا من أسباب إعجاز القرآن، وأنكر فكرة الاستدلال به عليه، **وثالثهم ابن أبي الإصبع المصري (654هـ)** في كتابه **(بديع القرآن)** الذي حاول أن يؤسس لنظرية في إعجاز القرآن، تقوم على فكرة البديع القرآني، وتفوق هذا البديع على سائر ما نجده منه في كلام البشر.

---

[1]- انظر كتاب: عبد المجيد، جميل: البيان بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص: 13 وما بعدها، فقد تحدث فيه مؤلفه عن مرحلتين متمايزتين في استخدام بن المعتز، عبد الله: البديع، وهما مرحلة ما قبل القرن السابع الهجري، التي كان يستخدم فيها بن المعتز، عبد الله: البديع بمعنى الجديد في بلاغة الشعر، ومرحلة ما بعد القرن السابع الهجري، وهي مرحلة التحديد والتخصيص، التي أصلها السكاكي (636هـ) وفيها حُددت المباحث البلاغية، وخُصَّ بن المعتز، عبد الله: البديع ببعض منها.

أولًا: البديع: لعبد الله بن المعتز (296هـ):

يعدُّ كتاب البديع لعبدالله بن المعتز أول كتاب أُلف تحت مسمى البديع، وحمل هذا الاسم، وأول كتاب جمع فيه مؤلفه ما انتهى إليه هو، وما أفاده من غيره، ممَّا سماه فنون البديع، التي حددها بخمسة فنون فقط، ثم ذكر ثلاثة عشر فنا سماها (محاسن الكلام والشعر)، وهذا يعني تمييزًا واضحًا بين النوعين: الفنون البديعية، ومحاسن الكلام والشعر.

وكان هدف ابن المعتز الرئيس من تأليفه هذا الكتاب، هو أن يثبت للناس أن المحدثين ليسوا هم أول من اكتشف البديع واخترعه وسبق إليه، وإنما هو موجود قبلهم في كلام العرب نثرهم وشعرهم، يقول: " وإنَّما غرضنا في هذا الكتاب تعريف الناس، أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع".[1] ويقول أيضًا: " قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا، بعض ما وجدناه في القرآن واللغة، وأحاديث رسول الله – صلى الله عليه– وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون (البديع)، لِيُعْلَمَ أن بشارًا، ومسلمًا، وأبا نواس، ومن تقيّلهم، وسلك سبيلهم، لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم، فعُرف في زمانهم حتى سُمّيَ بهذا الاسم، فأَعْرَبَ عنه، ودلَّ عليه".[2]

وهذا النص يدل على جملة من الأمور منها:

1. البديع موجود في النصوص الدينية: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وفي كلام العرب: نثرهم وشعرهم قبل المحدثين.

2. عبدالله بن المعتز ليس صاحب هذه التسمية (البديع)، وإنَّما المحدثون هم من أطلقوا هذه التسمية، ولكن من دون تحديد واضح أو دقيق، لأول من أطلق هذه التسمية ليدل بها على جملة من الفنون التي عُرفت بالبديع. ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن كلمة البديع قد وردت عند الجاحظ (255هـ) قبل ابن المعتز– الذي يرى بعض الباحثين أنه أول من أطلق هذه التسمية (البديع)[3]– عندما تحدث عمن سماهم (الخطباء الشعراء) أي الذين أجادوا في فنّي الخطابة والشعر معًا، يقول: "ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة، مع البيان الحسن: كلثوم بن عمرو العَتَّابي، وكنيته: أبو عمرو، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع، يقول جميع من يتكلف ذلك من شعراء المولدين، كنحو منصور النمري، ومسلم بن الوليد الأنصاري

[1]– ابن المعتز، عبد الله: البديع، ص: 3.

[2]– نفسه: ص: 1.

[3]– انظر على سبيل المثال: سلامة، إبراهيم: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950، ص: 62.

وأشباههما، وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع، ولم يكن في المولدين أصوب بديعًا من بشار وابن هَرْمة".[1]

3. ثمة عدد من الشعراء المحدثين الذين اشتُهروا بالبديع، وعُرفوا به، وأكثروا منه في أشعارهم، من أمثال: بشار بن برد، ومسلم بن الوليد، وأبي نواس، إلى جانب شعراء آخرين لم يذكر أسماءهم ممن اتبعوا مذهب هؤلاء الشعراء الثلاثة، وسلكوا مسلكهم في هذا الفن.

4. ما فعله الشعراء المحدثون في باب البديع هو الإكثار والإفراط، وليس الاختراع أو الابتداع، فالقدماء كانوا يعرفون هذا الفن نظمًا واستخدامًا، ولكنهم كانوا يجهلونه اصطلاحًا، وكان يرد في كلامهم عفو الخاطر، وعلى الفطرة والسليقة والسجية، وغير مقصود لذاته، في حين أن المحدثين عمدوا إلى استخدامه عمدًا، وقصدوا الإكثار منه قصدًا، ولا سيّما أبو تمام الذي ذكر ابن المعتز أنَّه أكثر من استخدام البديع إكثارًا عجيبًا، وأفرط في استعماله إفراطًا كبيرًا، خرج به عن الحد المقبول، حتى أخذ عليه ذلك كثير من النقاد والعلماء بالشعر، ومنهم ابن المعتز نفسه الذي يقول عنه: " ثم إن حبيب بن أوس من بعدهم، شُغِف به حتى غلب عليه، وتفرّع فيه، وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك، وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط، وثمرة الإسراف".[2] كما أنَّهم هم – أعني المحدثين– من أطلقوا عليه التسمية التي عُرف بها (البديع).

– التعريف الاصطلاحي لمصطلح (البديع) عند ابن المعتز:

عرّف ابن المعتز مصطلح (البديع) بقوله: "البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم، ولا يدرون ما هو".[3]

وبتدقيق النظر في هذا التعريف الذي ارتضاه ابن المعتز وحدده، يمكن أن نلاحظ أنَّه:

1. قصر البديع على جملة من فنون الشعر دون النثر، وهذا وهم منه، وذلك لأنَّ فنون البديع لا تقتصر على الشعر وحده دون النثر، فهي موجودة في الشعر والنثر على حد سواء، وهذا ما نبّه عليه ابن المعتز نفسه، وذكر عليه الأمثلة تلو الأمثلة من القرآن والحديث وكلام العرب.

2. ميز بين الشعراء ونقاد الشعر من جهة، والعلماء باللغة والشعر القديم من جهة أخرى، وما يدركه الفريق الأول ويعرفه ويتقنه، لا يدركه الفريق الثاني أو يعرفه ويتقنه، وهذا

[1]– الجاحظ: البيان والتبيين، ص: 51/1.
[2]– ابن المعتز، عبد الله: البديع، ص: 1.
[3]– نفسه، ص: 58.

تمييز ضروري وجيد من قبل ابن المعتز، إذ إن ميدان عمل الشاعر وناقد الشعر، يختلف اختلافًا بيّنًا عن ميدان عمل العالم باللغة وبالشعر، ومن هنا يمكن التمييز بين ثلاثة حقول معرفية تتصل بالشعر، وهي: صناعة الشعر، ونقد الشعر، والعلم بلغة الشعر، وهي حقول تتمايز فيما بينها، وتختلف اختلافات جوهرية من حيث المفهوم والماهية والطبيعة والسمات ونحو ذلك، وقد خلط كثير من العلماء والباحثين بين هذه الحقول الثلاثة، التي يمكن أن نضيف إليها حقلًا رابعًا كان سائدًا على الساحة الأدبية وهو: رواية الشعر، الذي يباين الحقول السابقة ويختلف عنها اختلافًا جوهريًا، وقد أدى التداخل بين هذه الحقول الأربعة، وعدم احترام خصوصية كل منها، إلى بعض الخلط في الدراسات التي تناولت فن الشعر، وإلى كثير من الخلل في إطلاق الأحكام النقدية التي تناولت الشعر والشعراء، إذ اتسمت بمجافاة الموضوعية، والبعد عن الدقة في كثير من الأحيان.[1]

– فنون البديع ومحاسن الكلام عند ابن المعتز:

ميّز ابن المعتز بين فنون البديع من جهة، ومحاسن الكلام والشعر من جهة أخرى، فرأى أنَّ الفنون البديعية تقتصر على خمسة فنون هي: **(الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي.)**[2]

بينما وجد أن محاسن الكلام والشعر (13) ثلاثة عشر هي:

الالتفات، والاعتراض، والرجوع، وحسن الخروج من معنى إلى معنى، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وتجاهل العارف، والهزل يراد به الجد، وحسن التضمين، والتعريض والكناية، والإفراط في الصفة، وحسن التشبيه، والإعنات، وحسن الابتداءات.[3]

ولم يدّع ابن المعتز أن فنون البديع هي ما ذكره فقط، ومن ثم فهو لم يغلق الباب أمام غيره من العلماء ممن يريد أن يستدرك عليه بعضًا من هذه الفنون، أو يستنبط فنونًا جديدة، أو يغير في أسماء بعضها ونحو ذلك، يقول: "اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارًا من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق في المعرفة، فمن أحب أن يقتدي بنا، ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئًا إلى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره"[4]. وهذا ما حدث فعلًا على أيدي

---

[1]- انظر مثلا: سخط الجاحظ على الرواة من خلال موقفه من الراوية أبي عمرو الشيباني في كتابه الحيوان، ص: 3/130–132؛ وانظر كذلك: موقف البحتري من عالم اللغة أبي العباس ثعلب صاحب كتاب (قواعد الشعر) في كتاب دلائل الإعجاز، ص: 252–253.

[2]– انظر ابن المعتز، عبد الله: البديع، ص: 3 وما بعدها.

[3]– انظر: ابن المعتز، عبد الله: البديع، ص: 58 وما بعدها.

[4]– نفسه: ص: 58.

العلماء ونقاد الشعر الذين أتوا بعده، إذ تلقفوا ما أتى به واستحدثه وذكره في كتابه، ثم أضافوا ما تحصّل لديهم، أو اكتشفوه نتيجة الخبرة والمدارسة والبحث، وهذا ما وجدناه عند قدامة بن جعفر (337هـ) مثلا في كتابه (نقد الشعر)[1]، وعند أبي هلال العسكري (395هـ) صاحب (الصناعتين)[2] وغيرهما كثير، ممن أفادوا مما أتى به ابن المعتز، وهذا يدل على أثر الرجل الواضح في النقاد الذين أتوا بعده من جهة، وفي تأصيله لمصطلح البديع، وتثبيته في العقلية البلاغية والنقدية من جهة أخرى.

ويتضح من خلال أنواع الفنون البديعية التي ذكرها ابن المعتز، أنَّ دلالة البديع عنده دلالة عامة، فهو لا يقصد بها ما عُرف فيما بعد تحت مسمى علم البديع، وإنما يعني بها البلاغة عمومًا، دون تمييز بين علومها المختلفة.

- منهج ابن المعتز في إيراد الشواهد:

اعتمد ابن المعتز على منهج واضح ومحدد في إيراد الشواهد على الفنون البديعية خاص، فكان يبدأ بالقرآن الكريم، ومن ثم بالحديث النبوي، فكلام الصحابة، وكلام الأعراب، لينتهي أخيرًا إلى الشواهد الشعرية، ولكن هذا المنهج لا يطرد دومًا، فقد رأى ابن المعتز أنَّ الفن الخامس وهو (المذهب الكلامي) يخلو منه القرآن الكريم، وذلك لأنَّه باب يتسم بالتكلف على حد زعمه، يقول: "وهذا باب ما أعلم أنَّي وجدت في القرآن منه شيئًا، وهو يُنسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا"[3].

وهذا ما لم يره غيره من النقاد والبلاغيين الذين جاؤوا بعده، فقد ذكر بعضهم أمثلة على هذا القسم من القرآن، كابن أبي الإصبع المصري مثلًا، الذي عرّف هذا الباب بقوله: "المذهب الكلامي عبارة عن احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة تقطع المعاند له فيه، لأنَّه مأخوذ من علم الكلام الذي هو إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية"[4]. وأشار إلى ما زعمه ابن المعتز من "أنَّه لا يوجد منه شيء في القرآن، والكتاب الكريم مشحون به"[5]، وذكر عليه أمثلة كثيرة من القرآن منها قوله تعالى: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"[6].

---

[1]- انظر كتاب: بن جعفر، قدامة: نقد الشعر، ص: 139 وما بعدها.
[2]- انظر كتاب: العسكري، أبي هلال: الصناعتين "الكتابة والشعر"، ص: 272.
[3]- ابن المعتز، عبد الله: البديع، ص: 53.
[4]- المصري، ابن أبي الإصبع: المصري: ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن في صناعة الشعر والنثر وبيان الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 119.
[5]- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن: 37.
[6]- الأنبياء، ص:22.

ويبدو أنَّ مفهوم ابن المعتز لهذا الباب يختلف عن مفهومه عند ابن أبي الإصبع أو غيره، وهذا يظهر من خلال وصفه إياه بالتكلف، ولذلك لم يذكر له أمثلة من القرآن، وقد ذهب الدكتور محمد مندور مذهبًا أبعد من هذا، في سياق حديثه عن كتاب البديع لابن المعتز، عندما رأى أنَّ هذا الباب –أعني المذهب الكلامي– "ليس من جوهر الشعر، بل ولا من جوهر التفكير المنتج"[1].

وأمَّا محاسن الكلام والشعر فقد خلت في معظمها من الشواهد القرآنية، باستثناء القسم الأول منها فقط وهو (الالتفات)، إذ إنه القسم الوحيد الذي أورد له شاهدًا من القرآن، فقد عرّفه بقوله: "هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، ومن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر"[2]. وذكر من أمثلته قوله تعالى: "حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة"[3]. وقوله تعالى: "إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد"[4]، ثم قال: "وبرزوا لله جميعا"[5].

وإذا كان هذا الأمر مقبولًا ومقنعًا في بعض هذه الأقسام التي تختص بالشعر أكثر من النثر، أو أنَّها تختص بالشعر وحده دون النثر، مثل: (حسن التضمين) و(حسن الابتداءات) و(الإعنات) مثلًا، فإن هذا الأمر مستغرب في أقسام أخرى يمكن أن نجد لها شواهد من القرآن الكريم، مثل: (التعريض والكناية)، و(الإفراط في الصفة)، و(حسن التشبيه) فقد ذكر البلاغيون شواهد على هذه الأقسام من القرآن الكريم، ولا سيما القسم الأخير وهو (حسن التشبيه) الذي أكثر البلاغيون من الحديث عنه، ومن إيراد الشواهد عليه من القرآن الكريم، وفي ذلك يقول ابن ناقيا البغدادي: "التشبيهات نوع مستحسن من أنواع البلاغة، وقد ورد في كتاب الله تعالى ما نحن ذاكروه في هذا الباب، وذاهبون إلى إيضاح معانيه، والتنبيه على مكان الفضيلة فيه"[6].

وهكذا نستطيع أن نحدد أهمية كتاب (البديع) لابن المعتز، وأثره في البحث في الإعجاز القرآني من خلال نقطتين أساسيتين:

---

[1]– النقد المنهجي عند العرب: مندور، محمد، ص: 52.
[2]– ابن المعتز، عبد الله: البديع: 58.
[3]– يونس/22.
[4]– إبراهيم/19.
[5]– إبراهيم/20.
[6]– البغدادي، ابن ناقيا: الجمان في في تشبيهات القرآن، ص: 3.

الأولى: تتعلق بالبديع نفسه، وحديث ابن المعتز عنه حديثًا مفصلًا، ومجموعًا تحت عنوان واحد، بعد أن كان الحديث عنه مفرقا هنا وهناك، والإشارة إليه موزعة في ثنايا الكتب المختلفة.

والثانية: الاستشهاد بالآيات القرآنية على الفنون البديعية، والإكثار من هذه الشواهد، وهو بذلك نبّه النقاد والبلاغيين على وجود هذه الفنون في القرآن، ولفت أنظارهم إلى أهميتها البالغة في البيان الإلهي؛ مما دفعهم إلى الاهتمام به، ودراسته والبحث فيه، إلى أن غدا نظرية قائمة بذاتها عند ابن أبي الإصبع المصري في كتابه (بديع القرآن) كما بيَّنا لاحقًا.

وقد تنبه الدكتور إحسان عباس على عمل ابن المعتز ونقاد آخرين، ممن حاولوا الربط بين البديع وفكرة الإعجاز، وحاولوا أن يؤسسوا لمنهج في الدراسات القرآنية والبحث في الإعجاز القرآني يقوم أساسًا على فكرة البديع، وقد جاء ذلك في سياق حديثه عن جهود الباقلاني في البحث في الإعجاز، وكيف أنَّه اتضحت لديه "أنَّ فكرة الإعجاز لدى نقاد الأدب قد سارت في طريقين: إحداهما الطريق التي سار فيها ابن المعتز، وقدامة، وتبعهما فيها الرماني وهي تعليل الإعجاز عن طريق البديع، أو دراسة الصور البيانية في القرآن"[1].

ثانيًا: إعجاز القرآن: للباقلاني (403هـ)

يأتي كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني واحدًا من أهم الكتب التي عُنيت بالبحث في الإعجاز القرآني، وترجع أهميته إلى الطريقة التي اتبعها لإثبات الإعجاز القرآني، والمنهج الذي طبقه في دراسته ليصل في نهاية المطاف إلى تأكيد ذلك الإعجاز والبرهنة عليه.

ولن أقف في هذا البحث على تفاصيل منهجه، بل سأشير إلى ذلك بإيجاز شديد، لأصل بعد ذلك إلى التفصيل في البديع عنده، وبيان وجهة نظره فيه وفي أثره في الوقوف على حقيقة الإعجاز القرآني لديه؛ وذلك لأنَّه يخالف كثيرًا من النقاد والبلاغيين الذين سبقوه أو الذين أتوا بعده في هذه المسألة.

أمَّا عن منهج الباقلاني في كتابه فيمكن القول: إنَّه كان منهجًا دقيقًا وواضحًا ومتقنًا، يقوم على جملة من الأسس والخطوات، هي:

1. الإقرار بحقيقة واضحة، والتسليم بقضية ثابتة؛ وهي أنَّ القرآن الكريم يحتاج إلى بحث دائم، ودرس مستمر[2].
2. القرآن الكريم هو معجزة النبي محمد صلى الله عليه وسلم التي تحدى بها الإنس والجن، والممتدة عبر الزمن، وتوالي العصور[3].

---

[1] عباس، إحسان: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، ص: 345.
[2] الباقلاني: إعجاز القرآن، ص:3.
[3] الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 8 وما بعدها.

3. القرآن الكريم يختلف في إعجازه عن الكتب السماوية الأخرى كالتوراة والإنجيل والصحف، فهذه الكتب ليست معجزة من جهة نظمها وتأليفها كما هو حال القرآن، وإنَّما هي معجزة من وجوه أخرى[1].

4. وجوه إعجاز القرآن ثلاثة هي:[2]

الوجه الأول: يتضمن الإخبار عن الغيوب.

والوجه الثاني: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان أميًا لا يكتب ولا يحسن القراءة، ولا يعرف شيئًا من كتب المتقدمين، وقصصهم وسيرهم وغير ذلك مما جاء في القرآن.

والوجه الثالث: بديع نظم القرآن، وعجيب تأليفه.

5. نفي الشعر من القرآن.[3]

6. نفي السجع المتكلف من القرآن.[4]

7. البديع وضروبه المختلفة، وهل يمكن أن يكون سببًا من أسباب الإعجاز[5]، وهو ما فَصَّلْنا فيه القول لاحقًا.

8. الموازنة بين القرآن والخطب، كبعض خطب النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والصحابة وبعض خطباء العرب المشهورين مثل: قس بن ساعدة الإيادي وغيرهم[6].

9. الموازنة بين القرآن والشعر، وقد استفاض في هذه الموازنة، وتوسع فيها، فاختار أبياتًا من قصيدتين اثنتين: الأولى لامرئ القيس؛ وهي معلقته المشهورة ذات المطلع:

قِفا نبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللوى بين الدَّخولِ فَحَوْمَلِ[7]

والثانية قصيدة للبحتري مطلعها:

أهلًا بذلِكُمُ الخيالِ المُقْبِلِ فَعَلَ الذي نَهْواهُ أمْ لم يَفْعَلِ[8]

---

[1] نفسه، ص: 31.
[2] انظر الحديث عن هذه الوجوه في: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 33 وما بعدها.
[3] نفسه، ص: 51 وما بعدها.
[4] نفسه، ص: 57 وما بعدها.
[5] نفسه، ص: 66 وما بعدها.
[6] نفسه، ص: 129 وما بعدها.
[7] نفسه، ص: 158 وما بعدها.
[8] نفسه، ص: 219 وما بعدها.

- البديع وأثره في الإعجاز القرآني عند الباقلاني:

بدأ الباقلاني حديثه عن البديع وعلاقته بالإعجاز القرآني بالسؤال الآتي:

"هل يمكن أن يُعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع؟"[1]

ولكي يجيب عن هذا السؤال المهم الذي تشكل الإجابة عنه لباب رأيه في البديع وأثره في الإعجاز، راح يذكر بعضًا من الفنون البديعية التي ذكرها البلاغيون والمهتمون بهذا الفن، ولم يكن همه أن يحصي أضرب البديع جميعها التي وصلت إلى عهده، بل كان مهتما بذكر بعض أبوابها لتكون أمثلة على غيرها، وشواهد على سواها، وهذا ما نصّ عليه بعد أن انتهى من استعراض تلك الأبواب بقوله: "ووجوه البديع كثيرة جدًا، فاقتصرنا على ذكر بعضها، ونبهنا بذلك على ما لم نذكر كراهة التطويل، فليس الغرض ذكر أبواب البديع جميعها"[2].

أمَّا عن منهجه في الحديث عن هذه الفنون، فقد بدأ يذكر بعض الأمثلة العامة عن البديع عامة من دون تحديد لها أو تسميتها، فأورد أمثلة ممَّا سماه البديع في القرآن الكريم، والبديع من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وأقوال الصحابة، وأشعار الشعراء، ثم انتقل بعد ذلك للتفصيل في أبواب بعينها، فذكر أبواب البديع الآتية: التشبيه، والاستعارة، والغلو، والمماثلة، والمطابقة، والتجنيس، والمقابلة، والموازنة، والمساواة، والإشارة، والمبالغة والغلو، والإيغال، والتوشيح، وصحة التقسيم، وصحة التفسير، والتكميل، والتتميم، والترصيع، والعكس والتبديل، والالتفات، والرجوع، والتذييل، والاستطراد، والتكرار، والاستثناء[3].

وأمَّا عن منهجه في إيراد الشواهد على هذه الفنون والأبواب البديعية، فالملاحظ أنَّه لم يكن يتبع منهجًا واحدًا ثابتًا، بل كان يورد الشواهد بأشكال وطرائق مختلفة، فقد يبدأ بالشواهد الشعرية أولًا، ومن ثم ينتقل إلى الشواهد من القرآن، كما هو الحال في باب التشبيه مثلا[4]، وقد يبدأ بالشواهد القرآنية، ثم يثني بأحاديث النبي، فكلام بعض الصحابة، ومن ثم الشواهد الشعرية، كما في باب التجنيس[5]، وقد يورد أحيانًا بعض الشواهد من الأحاديث النبوية، إلى جانب الشواهد القرآنية والشعرية كما في باب الاستعارة مثلًا[6]،

---

[1]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 66.

[2]- نفسه، ص: 107.

[3]- انظر هذه الأبواب في: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 69 وما بعدها.

[4]- نفسه، ص: 72-73.

[5]- نفسه، ص: 83-87.

[6]- نفسه، ص: 74-77.

وثمة أبواب عنده تخلو من الشواهد القرآنية خلوًا تامًا، كما في أبواب: (صحة التفسير)، و(التعطف)، و(السلب والإيجاب)، و(الاستثناء)[1]، ولكن الأغلب والأعم عنده هو أن يبدأ الباب البديعي بشواهد الشعر، ثم يختمه بشواهد القرآن، ولعله في هذا يختلف عن غيره من العلماء الذين يقدمون الحديث عن القرآن وما يتعلق به، عن غيره من فنون القول، وأساليب الخطاب الأخرى، كابن المعتز مثلًا في بديعه الذي رأيناه يبدأ بذكر الشواهد القرآنية أولا، ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر الشواهد الأخرى، كالحديث النبوي، وكلام الصحابة إلى أن يصل إلى الشعر، وواضح أنَّ مثل هذا الترتيب يعكس أهمية هذه الفنون وأهمية قائليها من الناحية الدينية، وربما من الناحية البلاغية أيضًا، ولاسيَّما ما يتعلق منها بالقرآن والحديث.

ولعل عذر الباقلاني في هذا الجانب، وعدم تقديمه الشاهد القرآني على الشاهد الشعري في معظم الأبواب البديعية التي ذكرها أمران:

الأمر الأول: هو أنَّه لم يكن ينظر إلى هذه الفنون نظرة تعلي من شأنها، أو تعطيها أهمية كبرى في الكلام، فهي أبواب الصنعة – كما يسميها أحيانًا–، ومن ثم فهي تتلازم مع التصنع والتكلف في كثير من الأحيان.

والأمر الثاني: هي أنَّ هذه الفنون –كما يبدو من حديثه عنها عمومًا– أليق بالشعر وبأساليب الكلام الأخرى منها بالقرآن، وهذا ما يتضح من خلال رفضه لأن تكون سببًا للإعجاز.

وبعد أن انتهى من سرد الأبواب البديعية التي انتقاها من أبواب البديع، وارتضاها لتكون أمثلة على ما عداها من أبوابه، انتقل ليبين موقفه من هذه الأبواب وعلاقتها بالإعجاز القرآني، وقد كان موقفًا واضحًا وصريحًا ومحددًا، يقول:

"وقد قدّر مقدّرون أنَّه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها، وأنَّ ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا، لأنَّ هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها، **أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها، وذلك كالشعر الذي إذا عرف الإنسان طريقه، صحّ منه التعمّل له، وأمكنه نظمه**، والوجوه التي نقول: إنَّ إعجاز القرآن يمكن أن يُعلَمَ منها، فليس مما يقدر البشر على التصنع له، والتوصل إليه بحال"[2].

فموقف الباقلاني واضح وصارم ومحدد وصريح لا لبس فيه ولا غموض، ولا يحتمل أي تأويل، فهو ينفي أن يكون البديع بفنونه المختلفة، وأبوابه المتنوعة التي نصّ عليها

[1]- انظر هذه الأبواب في: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 95، 98، 98، 106-107.
[2]- الباقلاني: إعجاز القرآن: 107.

النقاد والبلاغيون، وحدّدوها في كتبهم، سببًا من أسباب الإعجاز القرآني، ووسيلة من الوسائل التي يمكن أن يُستعان بها للكشف عن إعجاز القرآن وإثباته والبرهنة عليه، وما نجده عنده يكاد يكون ثورة حقيقية على مذهب البديع والبلاغة كما يرى الدكتور محمد زغلول سلام[1]، وحُجّته في ذلك أنَّ فنون البديع يمكن أن يتعلمها المرء، ويتقن أصولها بالتدرب والتعود، ومن ثم يستطيع استخدامها في كلامه، وحتى يبرهن الباقلاني على كلامه أكثر، ويؤكد صحة ما ذهب إليه، فإنه يجري مقاربة بين البديع والشعر، ويعقد مشابهة بينهما، فالبديع عنده يشبه الشعر إلى حد بعيد، فالشعر له أصول وأسس وطرائق وأدوات، وإذا عرفها المرء وأتقنها فإنه يصبح بمقدوره أن ينظمه، وأمَّا الوجوه التي يُستدَلُّ من خلالها على إعجاز القرآن، فهي ليست ممَّا يمكن للمرء أن يتعلمه أو يتقنه، ومن ثم يستعمله في كلامه، ويؤديها في خطابه.

ولا يكتفي الباقلاني بهذا الكلام العام، بل نجده ينتقل ليورد أمثلة من أشعار بعض الشعراء المحدثين ممن أولعوا بالبديع، وأُغرموا به، فأكثروا منه في أشعارهم، وأفرطوا في ذلك إفراطًا عجيبًا، كأبي تمام مثلًا الذي بالغ في استخدام البديع، فوقع فيما لا يُحمد عقباه من الإساءة، والبعد عن الإحسان، يقول: "ويبيّن ما قلنا أنَّ كثيرًا من المحدثين قد تصنّع لأبواب الصنعة، حتى حشا جميع شعره منها، واجتهد ألَّا يفوته بيت إلا وهو يملؤه من الصنعة، كما صنع أبو تمام في لاميته:

متى أنتَ عن ذُهْلِيَّةِ الحيِّ ذاهِلُ وصدرُك منها مدّةَ الدهرِ آهِلُ

.....

ومن الأدباء من عاب عليه هذه الأبيات ونحوها، على ما قد تكلّف فيها من البديع، وتعمّل من الصنعة، فقال: قد أذهبَ ماء هذا الشعر ورونقه وفائدته، اشتغالًا بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه"[2]، ثم ذكر له جملة من الأمثلة من شعره يظهر فيها إكثاره من الفنون البديعية المختلفة، لينتهي إلى القول: "فهذا وما أشبهه إنَّما يحدث من غلوه في محبة الصنعة، حتى يعميه عن وجه الصواب، وربما أسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها، حتى استُثقل نظمه، واستُوخم رصفُه، وكان التكلف باردًا، والتصرف جامدًا، وربما اتفق مع ذلك في كلامه النادر المليح، كما يتفق البارد القبيح"[3].

[1]- انظر: سلام، محمد زغلول: أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، ص: 296.
[2]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 107-108.
[3]- نفسه، ص: 110.

ثم نجده يوازن بين صنعته -أعني أبا تمام- وصنعة البحتري، فيرى أنَّ صنعة البحتري أحسن من صنعته، وذلك لأنَّه لم يتكلف الفنون البديعية في شعره تكلفًا، وإنَّما كانت تأتي في شعره عن غير قصد أو تعمد، ولذلك وقعت في شعره موقعًا حسنًا يقول: "فأمَّا البحتري فإنَّه لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام، ويقل التصنع له، فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حَسَنًا رشيقًا، وظريفًا جميلًا، وتصنعه للمطابق كثير حسن، وتعمقه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة، والرغبة في السلامة، فلذلك يخرج سليمًا من العيب في الأكثر"[1].

ونراه يرجع مرة أخرى ليؤكد موقفه الحازم والصارم من البديع، وأنَّه لا يصلح أن يكون سببًا من أسباب الإعجاز، أو وسيلة من وسائله، يقول: " ثم رجع بنا الكلام إلى ما قدمناه، من أنَّه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر، ووصفوه به، وذلك أنَّ هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلّم والتدرب به، والتصنع له، كقول الشعر، ورصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحذق في البلاغة، وله طريقٌ يُسلك، ووجهٌ يُقصد، وسلمٌ يُرتَقى فيه إليه، ومثال قد يقطع طالبه عليه"[2].

ونجده كذلك يربط بين العادة والتأليف في فنون القول المختلفة كالشعر والخطابة ونحو ذلك، فيرى أنَّ الأديب قد يتعود على الصنعة فتصبح عنده سليقة" فربَّ إنسان يتعوّد أن ينظم جميع كلامه شعرًا، وآخر يتعود أن يكون جميع خطابه سجعًا، أو صنعة متصلة، لا يُسقط من كلامه حرفًا، وقد يتأتى له لما قد تعوده.

وأنت ترى أدباء زماننا يضعون المحاسن في جزء، وكذلك يؤلفون أنواع البارع، ثم ينظرون فيه إذا أرادوا إنشاء قصيدة أو خطبة، فيحسنون به كلامهم، ومَنْ كان قد تدرَّبَ وتقدَّم في حفظ ذلك، استغنى عن هذا التصنيف، ولم يحتجْ إلى تكلف هذا التأليف، وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطًا من باع كلامه، وموشحًا بأنواع البديع ما يحاوله من قوله، وهذا طريق لا يتعذر، وباب لا يمتنع، وكلٌّ يأخذ فيه مأخذًا، ويقف منه موقفًا، على قدر ما معه من المعرفة، وبحسب ما يمده من الطبع"[3].

ويدرك الباقلاني أنَّ كلامه قد لا يروق لبعض المتحمسين للبديع وضروبه المختلفة، وأنهم قد يعترضون عليه في رأيه الذي رآه، وفي مذهبه الذي ذهب إليه، ولذلك نجده

[1]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 110-111.
[2]- نفسه، ص: 111.
[3]- نفسه، ص: 111-112.

يشير إلى أنَّ تلك الفنون قد تقع حسنة ومقبولة إن هي ابتعدت عن التكلف والتعمل والتصنع، وأتت عفوية وغير مقصودة لذاتها، ولكنها مع ذلك فهي لا تصلح لأن تكون وسيلة من وسائل إثبات الإعجاز القرآني بحال من الأحوال، يقول: "ولكن قد يمكن أن يقال في البديع الذي حكيناه وأضفناه إليهم: إن ذلك باب من أبواب البراعة، وجنس من أجناس البلاغة، وأنه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم، ولا وجه من وجوه فصاحاتهم، وإذا أُورد هذا المورد، ووُضع هذا الموضع كان جديرًا، وإنَّما لم نطلق القول إطلاقًا لأنَّا لا نجعل الإعجاز متعلقًا بهذه الوجوه الخاصة، ووقفًا عليها، ومضافًا إليها، وإن صح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة، آخذة بحظّها من الحسن والبهجة، متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المُسْتَبْشَعِ، والتعمُّل المُسْتَشْنَع"[1].

هذه هي جملة آراء الباقلاني في البديع وعلاقته بالإعجاز القرآني، وهي آراء تعكس وجهة نظره في هذه المسألة بوضوح شديد، وتبيّن موقفه من هذه القضية الشائكة والشائقة في آنٍ معًا، التي كانت مصدر اهتمام كبير من قبل النقاد والبلاغيين قبله وبعده، ولست أرى ما رأته الدكتورة عائشة عبد الرحمن، التي ذكرت "أن من أشق الأمور على دارس ينظر في كتاب الباقلاني، أن يستخلص له من بين ذلك الحشد الكاثر من الجدل الكلامي، والنصوص الطوال من الشعر والنثر، فكرة واضحة في الإعجاز البلاغي لنظم القرآن"[2].

ولعل تدقيق النظر في آراء الباقلاني هذه، ينتهي بنا إلى تقديم الملاحظات الآتية:

1. أراد الباقلاني –على ما يبدو– من خلال ذكره لجملة من الفنون البديعية، وإيراد الشواهد المختلفة عليها من القرآن والحديث النبوي والشعر وما إلى ذلك، إيصال رسالة إلى متلقيه تفيد بمعرفته بتلك الفنون، ودرايته التامة بأنواعها وصنوفها، ومن ثم فإنَّ حديثه عنها سيكون حديث العارف بها، والمطلع عليها، والخبير بأساليبها، وهذا قد يؤدي إلى إقناع القارئ بالموقف الذي سينتهي إليه من هذه الفنون وبيان أثرها في الإعجاز القرآني، وكذلك بالأحكام النقدية التي سيتناول فيها هذه الفنون، ويطلقها عليها.

2. تكاد تخلو معظم الشواهد التي أوردها الباقلاني على الفنون البديعية التي سردها، والتي نقلها من غيره من العلماء قبله، من أي تعليق أو تعقيب، فهو يكتفي بذكر الفن البديعي فقط، ثم يعقبه بشواهد قليلة، وهذا قد يدل دلالة خفية على عدم اهتمامه الكافي بهذه الفنون، ولعلنا لا نجد له إلا تعليقًا يتيمًا على قوله تعالى: "وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام"[3]، وقوله

[1] الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 112.
[2] سلام، محمد زغلول: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 100.
[3] الرحمن/24.

تعالى: "كأنهن بيض مكنون"[1]، إذ علق على هاتين الآيتين واصفًا التشبيه فيهما بالحسن بقوله: "ومن التشبيه الحسن في القرآن: قوله تعالى...وذكر الآيتين"[2].

3. قد توحي طريقة عرضه للفنون البديعية التي ذكرها، والتي كانت تبدأ بعبارات منسوبة لغيره، باستعماله ضمير الغائب فيها، كأن يقول مثلًا: "ومما يعدونه من البديع....."، أو "ويرون من البديع....."، أو "ومن البديع عندهم...."[3]، وأمثال هذه العبارات، أقول: قد يوحي هذا النمط في العرض باستهتار ضمني أو خفي بهذه الفنون، فغيره هو من يرى، وسواه هو من يعدّ وهكذا، وهذا كله يمكن أن يعد تمهيدا لموقفه الحاد من هذه الفنون، وإنكار كونها سببًا من أسباب الإعجاز.

4. لا تصلح الفنون البديعية برأي الباقلاني أن تكون وسيلة لإثبات الإعجاز القرآني، وآية من آياته، وذلك لسببين رئيسيين اثنين:

أمَّا السبب الأول فقد نصّ عليه الباقلاني بدقة ووضوح، وهو أنَّ الفنون البديعية يمكن تعلمها والتوصل إليها، وإتقانها بالتدريب والتعود والتصنع لها، وهي في هذا الجانب كالشعر، الذي يمكن للمرء أن يتعلم أصوله وطرائقه وأسسه ومن ثم ينظم منه ما شاء، في حين أنَّ أسباب الإعجاز هي ممَّا لا يمكن الوصول إليه أو تعلمه أو إتقانه.

ورأي الباقلاني هذا، يعني أنه ينبغي التمييز بين ما يمكن أن يُتقن بالتعلّم، وبين ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلّم، فالإعجاز لا يمكن الوصول إليه بالتعلّم والتدرب، بخلاف أساليب الكلام، وفنون القول المختلفة، وطرائق التعبير المتنوعة التي يمكن تعلّمها وإتقانها، إذ ثمة أشياء يتعلّمها الإنسان فيتقنها من خلال الدربة والممارسة ونحو ذلك، وهذه هي أساليب الكلام، وفنون القول، وثمة أشياء أخرى لا يمكن للمرء أن يتعلّمها، وهذا يعني بالضرورة عدم قدرته على إتقانها، وهذا هو الأسلوب القرآني، والبيان الإلهي.

ولعل عقد مشابهة بين تعلّم الفنون البديعية وإتقانها، وتعلّم الشعر وإتقانه، أمر غير دقيق تمامًا، وذلك لأنَّ الفرق كبير، والبون شاسع بين تعلّم الفنون البديعية، وتعلم الشعر، فالأصل في الشعر هو الموهبة، وغيابها يعني غياب القدرة على قول الشعر، مهما تعلّم المرء من أصوله وقواعده وأسسه التي يقوم عليها ونحو ذلك من مستلزماته، بخلاف تلك الفنون التي لا أرى أنها تحتاج إلى ما يحتاج إليه عمل الشعر من متطلبات كثيرة، وعلى رأسها، بل في مقدمتها الموهبة التي لا غنى عنها، ولا بدَّ من وجودها لكل من رام الشعر، أو أراد أن يكون شاعرًا.

---

[1]- الصافات/49.

[2]- الباقلاني: إعجاز القرآن: 73.

[3]- انظر مثلا في: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 72، 77، 78، 80، 87، 88-89.

ولا يكتفي الباقلاني بعقد المشابهة بين تعلّم تلك الفنون والشعر فقط، وإنَّما يتجاوز ذلك إلى المقاربة بينها وبين "رصف الخطب، وصناعة الرسائل، والحذق في البلاغة"[1]، وهذا ما لا أراه صحيحًا أيضًا، إذ الفرق كبير بين هذه الأنواع من أساليب القول، وتلك الفنون التي يحتاج إليها الشاعر والخطيب وكاتب الرسائل وغير هؤلاء من المتعاطين للكتابة في مجال الإبداع الأدبي على اختلاف أنواعه، وتنوع ضروبه، فالفنون البديعية هي وسيلة من الوسائل التي يستعين بها الأديب شاعرًا كان أم خطيبًا أم مترسلًا، ليوصل أفكاره وآراءه ومشاعره إلى الآخرين ليس أكثر.

وأمَّا السبب الثاني: فيمكن استنتاجه استنتاجًا، وذلك لأنَّ الباقلاني لم يصرح به تصريحًا مباشرًا، وهو ارتباط الفنون البديعية في ذهنه بالتصنع والتعمل في كثير من الأحيان، حتى إنه يسميها (أبواب الصنعة)[2]، وهذا الأمر لا يقتصر على الباقلاني وحده، وإنَّما نجده عند كثير من النقاد والبلاغيين الذين اقترنت عندهم هذه الفنون بالتصنع تارة، وبالتكلف تارة أخرى، وذلك لما وجدوه عند بعض الشعراء المحدثين من إفراط في استخدامها، كمسلم بن الوليد، وأبي تمام وغيرهما، مما أدى إلى نفور كثيرين من هذه الفنون، والنظر إليها على أنَّها تتلازم مع التصنع والتكلف، وهذا يعني أنَّها تسيء إلى المعنى، لأنَّ اهتمام الأديب الزائد بهذه الفنون، وسعيه الحثيث لإيراد هذه الفنون في كلامه عمدًا، سيكون بالضرورة على حساب المعنى، وهذا ما أشار إليه الباقلاني نفسه عندما ذكر "أن كثيرًا من المحدثين قد تصنع لأبواب الصنعة، حتى حشا جميع شعره منها، واجتهد ألا يفوته بيت إلَّا وهو يملؤه من الصنعة"[3]، واستشهد على ذلك بأبيات لأبي تمام.

على أنَّه ينبغي أن نشير هنا إلى أنَّ كثيرًا من النقاد والبلاغيين، قد ميزوا بين ما يرد من هذه الفنون عفو الخاطر، وغير مقصود لذاته، وهذا هو النوع الحسن، الذي يكون خادمًا للمعنى، وهو ما نقف عليه من هذه الفنون في القرآن الكريم، والحديث النبوي والشعر المطبوع، ونحو ذلك، وهذا هو البديع الذي قصده الجاحظ، وجعله معيارًا لتفوق العربية على غيرها من اللغات بقوله: "والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأَرْبَتْ على كل لسان"[4]، وبين ما يكون مقصودًا منها، ومتعمدًا، وهذا هو النوع السيّئ، الذي يكون عبئا على المعنى، وهو ما نجده في بعض أشعار المحدثين ممن تكلف البديع وتصنعه في شعره، وأفرط في استخدامه، كمسلم بن الوليد، وأبي تمام،

[1] الباقلاني: إعجاز القرآن: 111.
[2] نفسه: 108.
[3] نفسه: 107-108.
[4] الجاحظ: البيان والتبيين: 4/55-56.

وهذا ما نجده عند الآمدي في الموازنة، فقد نقل قول بعضهم: "أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد، ثم اتبعه أبو تمام، واستحسن مذهبه، وأحبَّ أن يجعل كل بيت من شعره غيرَ خالٍ من بعض هذه الأصناف، فسلك طريقًا وعرًا، واستكره الألفاظ والمعاني، ففسد شعره، وذهبت طلاوته، ونشف ماؤه"[1].

والحقّ أنَّ وجود الجيد والحسن في الكلام، وفي مقابله السيئ والقبيح، لا يقتصر على أضرب البديع وفنونه فقط، وإنَّما يمتد ليشمل أي أسلوب تعبيري آخر، وأية وسيلة فنية أخرى كالسجع مثلا، الذي إذا استُخدم استخدامًا عفويًا، وجاء مطبوعًا في الكلام، فإنَّه سيكون جميلًا ومؤثرًا ومفيدًا للمعنى، وإذا جاء متكلفًا مقصودًا لذاته جاء قبيحًا نافرًا، ومن هنا فالإشكالية ليست في الأسلوب التعبيري نفسه الذي نستخدمه، وليس كذلك في الوسيلة الفنية التي نستعملها في ذاتها، وإنَّما في الطريقة التي نستعمل بها هذا الأسلوب، أو تلك الوسيلة، لنعبر من خلالها عن أحاسيسنا ومشاعرنا، وما يدور في أذهاننا من آراء وأفكار، وهذا يعني أنَّ أي وسيلة فنية هي سلاح ذو حدين، حدّ جيد وحسن، وحد سيئ وقبيح، ويبقى التعويل بعد ذلك على الحد الذي نختاره، والجانب الذي نميل إليه، وطريقة الاستعمال، وكيفية الاستخدام.

والباقلاني يدرك هذا التفريق بين الحسن والسيئ من البديع جيدًا، ويعيه وعيًا تامًا، ويدرك أيضًا أنَّ من هذه الفنون ما يقع حسنًا وجميلًا ومؤثرًا في الكلام، إذا كان غير متكلف أو متعمل، ولكنه مع ذلك لا يميل إلى الاعتماد عليها عمومًا لتكون مصدرًا من مصادر الإعجاز، وسببًا من أسبابه.

ولعل مما يحسن ذكره في هذا السياق، هو أنَّ الباقلاني في نظرته هذه التي يرفض فيها أن تكون وجوه البديع سببًا من أسباب إثبات الإعجاز القرآني، يخالف عددًا من النقاد والبلاغيين ممن سبقوه، أو عاصروه، أو أتوا بعده، الذين اعتمدوا على تلك الوجوه، وكانت واحدة من الأسباب التي برهنوا من خلالها على إعجاز القرآن.

فعلي بن عيسى الرماني معاصره مثلًا، يرى أنَّ الإعجاز القرآني يقوم على سبعة وجوه، من بينها بل من أهمها (البلاغة) التي يقسمها إلى عشرة أقسام هي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان"[2]، وقد أتى الباقلاني على ذكر أقسام البلاغة العشرة هذه، ولكن من دون

[1]- الآمدي: الموازنة بين أبي تمام والبحتري، ص: 19-20.

[2]- الروماني، علي بن عيسى: النكت في إعجاز القرآن، ص: 76. ووجوه الإعجاز السبعة عنده هي: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة.

أن يسمي صاحبها صراحة، واكتفى بنسبتها إلى من أسماهم "بعض أهل الأدب والكلام"[1]، وهنا نجده يرجع إلى رأيه بالبديع بشيء من الموضوعية، وبكثير من الأناة، فيرى أنَّ تلك الفنون لا يمكن أن تكون سببًا للإعجاز على انفرادها، وإنَّما يمكن أن تكون كذلك مع غيرها من أساليب البلاغة، وطرائقها المختلفة في الأداء، كالنظم والتأليف ونحو ذلك، يقول: "وإنَّما ننكر أن يقول قائل: إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز من غير أن يقارنه ما يتصل به من الكلام ويفضي إليه، مثل ما يقول: إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز، وإنَّ التشبيه معجز، وإنَّ التجنيس معجز، والمطابقة بنفسها معجزة، فأمَّا الآية التي فيها ذكر التشبيه، فإن ادَّعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها، فإني لا أدفع ذلك وأصححه، ولكن لا أدعي إعجازها لموضع التشبيه"[2].

وابن أبي الإصبع المصري بعده، يقيم نظريته الأساسية في الإعجاز القرآني على البديع الموجود في القرآن، وهو ما سنراه في الصفحات المقبلة، وهذا يدحض الفكرة التي ذهب إليها بعض الباحثين، والتي ترى أنَّ "استنباط ألوان البديع من نصوص الأدب العربي بعامة، ومحاولة تعليل وجه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم بها، لم يقتنع بها الفكر البلاغي لدى المسلمين"[3].

ثالثًا: بديع القرآن: لابن أبي الإصبع المصري (654هـ)

ابن أبي الإصبع المصري واحد من نقاد القرن السابع الهجري وبلاغييه المعروفين، وله كتابان نقديان بلاغيان مطبوعان، الأول: (تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن)، والثاني كتاب (بديع القرآن)، إلى جانب كتب أخرى كثيرة مفقودة[4].

والكتاب الذي يعنينا في هذا البحث هو كتاب (بديع القرآن) لاتصاله الوثيق بمضمونه وهدفه وغايته، وهو كتاب أفرده مؤلفه من كتاب (تحرير التحبير) الذي يعدُّ أشمل من كتاب (بديع القرآن)، وأوسع مادة علمية منه، وأكثر تنوعًا وأوفى تفصيلًا، ولكن هذا لا يعني أنَّ المادة العلمية في (بديع القرآن) مستلة بتمامها، ومأخوذة بكمالها من (تحرير التحبير) إذ ثمة أشياء كثيرة أضافها الرجل، وأخرى حذفها، وأبواب أثبتها، وأبواب ألغاها، انسجامًا مع عنوان الكتاب، وغايته، ومضمونه، ومادته العلمية، فهو كتاب يعنى ببحث البديع في القرآن فقط، بخلاف كتاب (تحرير التحبير) الذي كان واسعًا

---

[1]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 396.

[2]- الباقلاني: إعجاز القرآن، ص: 418.

[3]- عرفة، عبد العزيز بن معطي: قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، ص: 389.

[4]- انظر الحديث عن مؤلفات ابن أبي الإصبع المصري في مقدمة تحقيق كتاب (المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن) لحفني محمد شرف، ص: 88 وما بعدها.

وشاملًا، فتضمن حديثًا مترامي الأطراف عن البديع بمفهومه الواسع في الشعر والنثر على حد سواء، ومن هنا فإنَّ المؤلف حاول أن يتوسع في الشواهد القرآنية في كتاب (بديع القرآن) توسعًا ملحوظًا من جهة، ولم يسرد الأبواب البديعية كلها التي في (تحرير التحبير)، وذلك لأنَّ ثمة أبوابًا بديعية ذكرها في هذا الكتاب تختص بالشعر، أو ببعض الفنون النثرية الأخرى، ولكنها لا توجد في القرآن لمغايرتها لأسلوبه ومضمونه من جهة أخرى، ولهذا فقد تحدث في كتاب (بديع القرآن) عن مئة وتسعة أبواب فقط، مستغنيًا عن اثنين وعشرين بابًا أوردها في التحرير، ولم يذكرها في بديعه، "وذلك لأنَّه لم يجد لها أمثلة في القرآن الكريم، وإن وجد بعض المؤلفين لبعضها فيما بعد"[1]، ومن أمثلة هذه الأبواب مثلا: الهزل الذي يراد به الجد، وائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن، والتجزئة وغيرها، كما أنَّه ذكر أبوابًا جديدة لم يتضمنها كتاب التحرير مثل: التلفيف، والتفصيل، والتنظير وغيرها[2].

صحيح أنَّ ابن أبي الإصبع حاول أن يجمع في كتابيه فنون البديع التي وصلت إليه، ويضيف إليها ما اخترعه هو، وهذا ما رآه بعض الباحثين، عندما وجد أن ما قام به الرجل "عمل مهم بذل فيه جهدًا كبيرًا، وتوخى ما أمكنه حصر فنون البديع، ومحاولة استنباطها من القرآن، وقد قدم ذلك كلّه بأسلوب بعيد عن التعقيد"[3]، ولكن الصحيح أيضا، بل لعله الأهم، هو محاولة الرجل إثبات الإعجاز القرآني بالاستناد إلى فكرة البديع، ومن هنا يمكن القول بكثير من الاطمئنان: إنَّ كتاب (بديع القرآن) يمثل نظرية في البحث في الإعجاز القرآني تقوم في جوهرها على فكرة البديع، وما تضمنه القرآن من فنون بديعية مختلفة، تفوقت على مثيلاتها في كلام البشر، وقد يعدُّ هذا الرأي ردًا على آراء الباقلاني التي رفض فيها الاستدلال على الإعجاز القرآني وإثباته، اعتمادًا على ما فيه من أضرب البديع المختلفة، وهذا ما ذهب إليه د. بدوي طبانة الذي يقول: "ويبدو أنَّ فكرة هذا الكتاب –يعني بديع القرآن– كانت رد فعل لفكرة الباقلاني التي بسطها في (إعجاز القرآن) والتي ذهب فيها إلى أنَّ إعجاز الكتاب الكريم لا يلتمس من ناحية ما اشتمل عليه من البديع، فجاء ابن أبي الإصبع وقد قرأ في البديع ما قرأ، واستنبط من

[1]– مقدمة تحقيق: المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 93. وقد ذكر المحقق في الحاشية رقم: /1/ ص/93/ أنَّ ابن حجة الحموي في كتابه (خزانة الأدب) قد وجد شواهد على بعض الأبواب التي أغفلها ابن أبي الإصبع لأنَّه لم يجد لها شواهد في القرآن، مثل أبواب: الترصيع، والإغراق، والمشاكلة.

[2]– انظر هذه الأبواب على الترتيب في: المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 123، 154، 238.

[3]– البخيتاوي، عماد محمد محمود: مناهج البحث البلاغي عند العرب، دراسة في الأسس المعرفية، ص: 59.

فنونه ما استنبط، وحاول أن يستخرج من القرآن غرر هذا البديع التي تفوق ما وقف عليه من بديع الكتاب والشعراء في العصور المختلفة، ليكون ذلك وجهًا من وجوه الإعجاز"[1].

وهذا ما نرجحه ونميل إليه، ولا سيَّما أنَّ كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني، هو واحد من المصادر التي اعتمد عليها ابن أبي الإصبع، وذكرها ضمن قائمة الكتب الطويلة التي رجع إليها وشكلت عمدة مصادره[2]، ولذلك فإنني لا أستبعد أن تكون آراء ابن أبي الإصبع في بديعه، ردًا على آراء الباقلاني في إعجازه، ودحضًا لها.

وابن أبي الإصبع ليس أول من تحدث عن البديع ليثبت من خلاله إعجاز القرآن، فقد سبقه إلى ذلك عدد من النقاد والبلاغيين، وأكاد لا أبعد كثيرًا، إذا قلت: إنَّ معظم النقاد والبلاغيين الذين سبقوه قد تحدثوا عن البديع وفنونه، وأشاروا إلى وجوده في القرآن الكريم، وبيّنوا مواضع الجمال فيه، وملامح البراعة التي تتجلى في الآيات القرآنية التي تتضمن بعضًا من تلك الفنون البديعية، بدءًا من الجاحظ (255هـ) في القرن الثالث الهجري، مرورًا بعدد كبير من النقاد والبلاغيين الذين أتوا بعده، كابن المعتز (296هـ) في كتابه (البديع) الذي سلف الحديث عنه، وقدامة بن جعفر (337هـ) في كتابه (نقد الشعر)، والرماني (386هـ) في رسالته (النكت في إعجاز القرآن)، وأبي هلال العسكري (395هـ) في (كتاب الصناعتين)، وعبد القاهر الجرجاني (471هـ أو 474هـ) في كتابيه: (دلائل الإعجاز)، و(أسرار البلاغة)، وغيرهم كثير، وابن أبي الإصبع قد أفاد من هؤلاء جميعًا ومن غيرهم أيضًا، وقد نصّ على ذلك نصًا صريحًا في مقدمتي كتابيه: (تحرير التحبير)، و(بديع القرآن)[3] عندما عدّد مصادره التي أفاد منها على غير ما اعتاده كثير من المؤلفين قبله، ممن لم يكونوا يهتمون بذكر مصادرهم، أو يشيرون إلى ما أفادوه من غيرهم.

ولكن وجه الاختلاف الأساسي بين ابن أبي الإصبع، وغيره من المهتمين بالبديع، وبيان أثره في الإعجاز القرآني، هو أنه اهتم به اهتمامًا كبيرًا فاق اهتمام نظرائه ممن عاصروه أو سبقوه، واستطاع أن يؤصل لنظرية حقيقية في إعجاز القرآن تقوم على فكرة البديع بمفهومه العام والشامل، وليس بمفهومه الضيق الذي يراد به ما عُرف بعلم البديع وفنونه المختلفة، ومن هنا فإنه يمكن لنا أن نضيف إلى نظريات إعجاز القرآن الكثيرة والمختلفة، وبكثير من الثقة والاطمئنان، نظرية جديدة في إعجاز القرآن، تبنّاها وأصّلها وحدد ملامحها ابن أبي

---

[1] طبانة، بدوي: البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، ص: 52.

[2] انظر المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن: 5.

[3] انظر: المصري: ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ص: 83 وما بعدها؛ والمصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 4 وما بعدها.

الإصبع المصري في كتابه (بديع القرآن)، مع الإشارة إلى أنَّه لم يأخذ بهذه النظرية فقط، بل نجده يأخذ بآراء أخرى يراها هي أيضًا دليلًا على الإعجاز القرآني[1].

- ابن أبي الإصبع ونظريته في البديع في إعجاز القرآن:

وأمَّا عن أسس نظرية ابن أبي الإصبع المصري القائمة على البديع في إثبات إعجاز القرآن، فلعل نظرة متأنية في كتابه (بديع القرآن) تؤدي بنا إلى الوقوف على تلك الأسس التي نجملها بالآتي:

1- تفوق البديع القرآني على البديع في كلام البشر:

استقر في أذهان العلماء والباحثين منذ أن بدأ البحث في البديع وفنونه المختلفة، ومنذ أن أصّل ابن المعتز للبديع في كتابه المسمى بهذا الاسم كما - مر بنا- أنَّ البديع موجود في القرآن الكريم، كما أنَّه موجود في سائر الكلام من نثر وشعر على حد سواء، وهذا يعني أنَّ البديع ليس حكرًا على فن قولي دون آخر، وليس محصورًا في هذا الأسلوب من الكلام دون غيره، وإنَّما هو وسيلة فنية استعان بها كل من كان له حظ من حرفة الأدب.

وعندما بدأ الناس يبحثون في أسباب الإعجاز القرآني، وبيان ملامحه، وتحديد أسسه، كان البديع واحدًا من تلك الأسباب التي اختلف عليها العلماء فيما بينهم بين مؤيد ومعارض، فبعضهم أقره سببًا للإعجاز، واعترف به وسيلة من وسائل الكشف عنه وإثباته، كالرماني مثلًا في نكته - كما سبق أن ذكرنا- وبعضهم الآخر رفض ذلك، ولم يرَ أنَّه يصلح على انفراده لإثبات الإعجاز كالذي رأيناه عند الباقلاني مثلًا.

ولما وصل الأمر إلى ابن أبي الإصبع وجدناه واحدًا من أكثر المغرمين بالبديع، والمدافعين عنه، وواحدًا من أبرز العلماء الذين تبنوا فكرة إثبات الإعجاز القرآني بالاستناد إلى فكرة البديع، ولا سيما كتابه الذي خصصه للبديع في القرآن والمسمى بهذا الاسم، أعني -بديع القرآن-.

ولعل الفكرة الأساسية التي انطلق منها ابن أبي الإصبع، وشكلت الركيزة الرئيسة له في إثبات الإعجاز، بالاستناد إلى فكرة البديع، هي الإقرار بوجود البديع في القرآن وفي غيره من فنون القول، وأساليب الكلام أولًا، وتفوق البديع القرآني على البديع الذي نجده في كلام المخلوقين ثانيًا، وهذا هو جوهر نظريته في الإعجاز، وعمدة رأيه في إثباته،

[1]- تبنى ابن أبي الإصبع عددًا من الآراء في الباقلاني: إعجاز القرآن منها: الصرفة، وموازنة القرآن بغيره من فنون القول، والفصل والوصل؛ انظر: المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 22 وما بعدها، 96، 168 وما بعدها. وانظر تفاصيل هذه الآراء والحديث عنها في كتاب: يونس، حمود: يونس، حمود: النقد عند ابن أبي الإصبع المصري، ص: 349 وما بعدها.

ففي باب (الموازنة) مثلًا التي عرّفها بقوله: "هي مقارنة المعاني بالمعاني ليُعرَفَ الراجح في النظم من المرجوح"[1]. يورد قول السموءل:

ونُنكـرُ إنْ شـئنا علـى النـاس قـولَهم ولا ينكـــرونَ القـــولَ حـــينَ نقـــولُ

ثم يقول: "فإنك إذا وازنتَه بقول الله سبحانه: "لا يُسألُ عمّا يَفْعَلُ وهم يُسْأَلونَ"[2]، تبيّنَ لك ما بين الكلامين من الفرق، وأمثال هذا الباب كثيرة، وهذا أحد وجوه الإعجاز، وهو قياس القرآن بكل معجز من الكلام"[3].

وفـي موضـع آخـر نجـده يـورد قولـه تعـالى: "واتبعـتُ ملّـةَ آبـائي إبـراهيمَ وإسـحاقَ ويعقوب"[4]، مبينًا ما فيها من فنون بديعية، ثم ينتهي إلى القول: "فالحظ ما اتفق في هذه اللفظات الست من أنواع البلاغة، لتقدر نظم القرآن العزيز قدره، وتعرف فرق ما بينه في هذا الباب، وما جاء فيه من أشعار فصحاء العرب"[5]، "فهو لا يذكر هنا شعرًا محددًا، ثم يوازن بينه وبين الآية الكريمة، بل إنه يدعو القارئ إلى إجراء مثل هذه الموازنة إن شاء، بين هذه الآية وبين أي شعر فصيح يختاره، بعد أن مهد له الطريق بشرحه الآية السابقة، وعرض ما فيها من صنوف البيان، وأنواع البديع"[6].

2- عدد الفنون البديعية في الآية الواحدة:

التفت ابن أبي الإصبع إلى عدد الفنون البديعية في الآية الواحدة، ورأى أنَّه كلما قلّ عدد كلمات الآية، وزاد عدد الفنون البديعية فيها، دلّ ذلك على تميّز الآية وجمالها، وزيادة قوتها في التعبير والتأثير ونحو ذلك، وقد تحدث عن هذا الأمر في مواضع كثيرة من بديعه، إلَّا أنَّ ممَّا يلفت النظر عنده حقًّا، هو اختراعه بابًا سماه (الإبداع) تحدث فيه عما يمكن أن يتضمنه النص الواحد من فنون بديعية بالقياس إلى عدد ألفاظه، سواء أكان شعرًا أم نثرًا، فهو يقول في تعريفه: "هو أن تكون كل لفظة من لفظ الكلام على انفرادها مُتضمِّنَةً بديعًا أو بديعين

---

[1]- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 95.

[2]- الأنبياء/23.

[3]- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 96. وانظر كذلك ما قاله في قصة السموءل في وفائه بأدراع امرئ القيس التي أودعه إياها عند دخوله الروم، والموازنة بينها وبين قصة يوسف في القرآن الكريم في: المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 239-241.

[4]- يوسف/38.

[5]- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 96.

[6]- يونس، حمود: النقد عند ابن أبي الإصبع المصري، ص: 193؛ وانظر فيه أمثلة أخرى على الموازنة بين القرآن والشعر، ص: 190 وما بعدها؛ والموازنة بين القرآن والنثر، ص: 199 وما بعدها.

بحسب قوة الكلام، وما يعطيه معناه بحيث يأتي في البيت الواحد، والجملة الواحدة عدة ضروب من البديع، ولا تخلو لفظة منه من بديع فما زاد عليه"[1].

وذكر من أمثلته قوله تعالى: "وقيلَ يا أرضُ ابْلعي ماءكِ ويا سماءُ أَقْلِعي وغِيضَ الماءُ وقُضيَ الأمرُ واسْتوتْ على الجوديِّ وقيلَ بُعْدًا للقومِ الظالِمين"[2]. يقول: "وما رأيتُ ولا رويتُ في الكلام المنثور، والشعر الموزون، كآية من كتاب الله تعالى، استخرجتُ منها أحدا وعشرين ضربا من البديع، وعددها سبع عشرة لفظة، وهي قوله تعالى – وذكر الآية- وتفصيل ما جاء فيها من البديع: المناسبة التامة في ابلعي وأقلعي، والمطابقة اللفظية في ذكر السماء والأرض، والاستعارة في قوله: ابلعي وأقلعي للأرض والسماء....."[3]. ويتابع تعداد الفنون البديعية في الآية، مبينًا جمالياتها وتميزها وبلاغتها ونحو ذلك، لينهي كلامه متعجبًا من بلاغة هذه الآية وفصاحتها وجمالها بالقول: "فانظر –رحمك الله- إلى عظمة هذا الكلام، وما انطوى عليه نظمه، وما تضمّنه لفظه، لتقدّره قدره...."[4].

ويورد في باب آخر هو (باب التوليد) قوله تعالى: "قل ربِّ احكمْ بالحق"[5]، ثم يقول مبينًا عدد الفنون البديعية في هذه الكلمات على قلتها: "فقد تنخّل عن هذا الجواب أربعة عشر ضربًا من البديع اتفقت في هذه اللفظات الثلاث، وهي:...."[6].

وفي باب آخر سماه (المقارنة) وهو واحد من مخترعاته، وعرّفه بقوله: "هو أن يقترن بديعان في كلمة من الكلام"[7]، نجده يدقق في الكلمة الواحدة فإذا تضمنت فنّين بديعين فهذا دليل على روعة الكلام وجماله وتميزه، ويضرب مثالًا على ذلك قوله تعالى: "وهم يحملون أوْزارَهُمْ على ظُهورِهم أَلَا ساءَ ما يَزِرون"[8].يقول: "فإنَّه قد اقترن في لفظتين من هذه اللفظات ضربان من البديع: التنكيت، والمبالغة مقترنة به.... وما اكتنف هذا الاقتران من تجنيس المزاوجة في قوله تعالى "أوزارهم" قبل قوله "على ظهورهم"، وقوله تعالى "يزرون" بعدها، وترشيح هذا التجنيس لتمكين الفاصلة بالتصدير، واقتران الترشيح بالتجنيس، واقتران التجنيس بالتصدير"[9].

---

[1]- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 340.
[2]- هود/44.
[3]- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 340.
[4]- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 343.
[5]- الأنبياء/112.
[6]- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 209.
[7]- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 318.
[8]- الأنعام/31.
[9]- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 318-319.

وقد يلتبس هذا الباب –أعني باب المقارنة– بباب (الإبداع) الذي سبق ذكره، ولذلك نجده يبيّن الفرق بين البابين بقوله: "والفرق بين هذا الباب وباب الإبداع، أنَّ باب الإبداع عبارة عن الإتيان ببديعين فصاعدًا في الكلمة المفردة من غير اقتران"[1]، على أنَّني لا أجد أنَّ هذا الفرق يكفي لإفراد باب خاص له، وكان يمكن أن يجمع بين البابين في باب واحد، وهذا ما ذهب إليه محقق الكتاب عندما رأى أنْ لا فرق بين البابين، وما ذكره الرجل لا ينهض فرقًا بينهما[2].

وفي موضع آخر يورد قوله تعالى: "ولا تَرْكَنوا إلى الذين ظَلَموا فَتَمَسَّكُمُ النار"[3]، ثم يقول بعد أن يفصّل القول في هذه الآية، وما تضمنته من فنون بديعية كثيرة مع قلة عدد ألفاظها: "فالحظْ ما انطوى عليه نظم هذه اللفظات السبع التي هي بعض آية من المعنى وأنواع البديع مثل: الائتلاف الذي دلت عليه الملاءمة، والإدماج، والتعليق، والافتنان، والمقارنة، والبسط...."[4].

ولم يقف ابن أبي الإصبع عند عدد الكلمات في الآية الواحدة فقط، بل نجده يدقق أحيانًا في عدد حروف الآية، ولاسيَّما حين يوازن بين بعض آيات القرآن، وغيرها من كلام البشر، كما في الموازنة بين قوله تعالى: "ولكم في القصاص حياة"[5]، وقولهم في المثل: (القتل أنفى للقتل)، إذ نجده ينقل كلام الإمام فخر الدين الرازي في الترجيح بين الكلامين، ثم ينتقده في بعض ما ذهب إليه من آراء، إلَّا أنَّنا نجده يوافقه في الوجه الخامس من وجوه الترجيح إذ يقول : "والوجه الخامس لعمري هو جيد لا مقال فيه، وهو قوله: إن حروف (القصاص حياة) عشرة، وحروف كلامهم أربعة عشر حرفًا، وهذا أمر معتبر في الإيجاز"[6].

ونجده لشدة تدقيقه وأناته في قراءة الآيات القرآنية، ينظر في الكلمة إذا وقعت حرفًا، ليبيّن ما فيها من فنون البديع المختلفة بسبب وجود هذا الحرف أو ذاك، فمن ذلك ما ذكره في حرف العطف (ثم) في قوله تعالى: "وإنْ يُقاتلوكُمْ يُولُّوكُمُ الأدبارَ ثم لا يُنْصَرون"[7]، يقول: "وأعجب ما فيها أن لفظة (ثم) على انفرادها، وقع فيها من ذلك –

[1]– المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 318.
[2]– المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 318. الحاشية الأولى.
[3]– هود/113.
[4]– المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 163.
[5]– البقرة/179.
[6]– المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 197.
[7]– آل عمران/111.

يعني من فنون البديع- تسعة أضرب وهي: الاحتراس، والمقارنة، والإيضاح، والائتلاف، والإدماج، والتكميل، وحسن النسق، والترشيح، يوجد بوجودها، ويعدم بعدمها، فإنه لو قدّرت (الواو) موضع (ثم) بحيث يقال: "ولا ينصرون" لسقطت هذه الضروب التسعة"[1].

3- البديع في القرآن مطبوع وفي غيره مطبوع ومتصنع ومتكلف:

البديع في القرآن مطبوع بكليته، وجاء ليخدم المعنى، ويزيده نصاعة وبهاء وقوة، بخلاف البديع الذي نجده في كلام البشر، الذي نقع فيه على المطبوع والمتصنع، لا بل المتكلف في بعض الأحيان، كالذي نجده في بعض أشعار أبي تمام وأمثاله من الشعراء الذين كلفوا بالبديع وأغرموا به، حتى صار همهم الأول، وشغلهم الشاغل هو حشو أشعارهم بالبديع، وتكلفه في كلامهم، فأدى ذلك إلى خروج البديع عن وظيفته الحقيقية في خدمة المعنى، وجلاء العبارة، وتقديمها بأحسن صورة، وجعله يرتبط في أذهان كثيرين بصورة تتجه نحو تزيين الكلام من الخارج، وتجميلها بما لا يفيد زيادة في المعنى، أو بهاء في العبارة.

والبديع الذي يريده ابن أبي الإصبع، هو ذلك البديع الذي يأتي عفو الخاطر، وغير مقصود لذاته، ويبتعد عن التصنع، وينأى عن التكلف، ولهذا نجده يدعو إلى أن يتحلّى الكلام "من البديع بما أتى به الطبع من غير تكلف ولا تعسف"[2]، وما ذاك إلا البديع في القرآن، الذي يصلح أن يكون سببًا من أسباب الإعجاز، وآية من آياته، والبديع بهذا المفهوم مبثوث في صفحات القرآن، وأينما رحت تقرأ في بديع القرآن ستجد الأمثلة تلو الأمثلة، والنماذج تعقبها النماذج، للبديع القرآني السهل السلس المطبوع، فمن ذلك مثلًا ما ذكره ابن أبي الإصبع في الضرب الأول من ضربي باب (الانسجام) الذي يأتي مع البديع الذي لم يقصد لذاته، وهو قوله تعالى: "إنَّما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلمُ من الله ما لا تعلمون"[3] إذ يقول: "فأنت ترى سهولة هذا النظم، وعذوبة هذه الألفاظ، وما في هذا الكلام من الانسجام، مع ما وقع فيه من التعطف في قوله تعالى "إلى الله"، و"أعلم من الله"، فإنه إنَّما عدل عن قوله "وأعلم منه"، وهو أوجز من الأول، ليأتي في الكلام تعطف يزيده حسنًا، وفيه زيادة خضوع وترقق مع تمكين فاصلة الآية"[4].

---

[1]- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 133.

[2]- المصري: ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ص: 158.

[3]- يوسف/86.

[4]- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن: ص: 166-167.

ومن ذلك أيضًا ما ذكره في (باب التهذيب) من آيات كثيرة تتسم بالسلاسة والسهولة والوضوح والانسيابية والدقة في التعبير، والعمق في المعنى ونحو ذلك من سمات الجمال، وملامح الروعة، مع ما تضمنته من فنون بديعية مختلفة، منها قوله تعالى: "الذي خلقَني فهو يَهْدين* والذي هو يُطعِمُني ويسقين* وإذا مرضتُ فهو يشفين"[1].

وفي باب (ائتلاف اللفظ مع المعنى)، الذي يعرّفه تعريفًا جديدًا فيه من التفصيل والشرح ما لا نجده عند غيره من البلاغيين الذين سبقوه، إذ يقول: " وتلخيص تفسير هذه التسمية أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضًا، ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها، غير لائقة بمكانها، كلها موصوف بحسن الجوار، بحيث إذا كان المعنى غريبًا قُحًّا كانت ألفاظه غريبة محضة، وإذا كان المعنى مولدًا كانت الألفاظ مولدة، وإذا كان المعنى متوسطًا كانت الألفاظ كذلك، وإذا كان غريبًا كانت الألفاظ غريبة، وإذا كان متداولًا كانت الألفاظ معروفة مستعملة، وإذا كان متوسطًا بين الغرابة والاستعمال كانت ألفاظه كذلك"[2].

وذكر من أمثلة هذا الباب قوله تعالى: " قالوا تالله تفتأُ تذكرُ يوسف حتى تكونَ حَرَضًا"[3]، يقول: "فإنه سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها فإن التاء أقل استعمالًا، وأبعد من أفهام العامة، والباء والواو أعرف عند الكافة، وهي أكثر دورانًا على الألسنة، واستعمالًا في الكلام، أتى سبحانه بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء، وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها، فإن (كان) وما قاربها أعرف عند الكافة من (تفتأ) وهم (لكان) وما قاربها أكثر استعمالًا منها، وكذلك لفظ (حرضا) أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك، فاقتضى حسن الوضع في النظم، أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخيًا لحسن الجوار، ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع، وتتناسب في النظم"[4].

وفي أبواب: (المساواة)، و(الإشارة)، و(حسن النسق) وغيرها من الأبواب، نقع على أمثلة كثيرة لآيات اتسمت بجمال الأسلوب، وروعة الأداء، وحسن السبك، وجودة المعنى، ونحو ذلك من سمات الأداء المتميز، وصفات التعبير المعجز، مع ما تضمنته من أبواب البديع التي لم تكن مُتَصنَّعةً أو مُتَكَلَّفةً، ولا مُسْتَجلبةً لغير فائدة، منها مثلًا قوله

[1] الشعراء/78–80؛ وانظر الحديث عن هذه الآية في المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 99، 163.
[2] المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 77.
[3] يوسف/85.
[4] المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 77–78.

تعالى: "إن الله يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذي القُربى ويَنْهى عن الفحشاء والمنكر والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لعلّكم تَذَكَّرون"[1]، وغيرها كثير.

نتائج البحث:

يمكن إجمال النتائج التي توصل إليها البحث بالنقاط الآتية:

1. اهتمام العلماء بإعجاز القرآن، واستمرار البحث عن أسباب هذا الإعجاز، والوقوف على دلائله، وإثباته لمن يشك فيه أو ينكره.

2. اختلاف العلماء في أسباب الإعجاز، وتباين آرائهم في الدلائل التي يمكن أن يبرهنوا من خلالها على هذا الإعجاز.

3. اهتمام العلماء بالبديع بمفهومه العام والشامل الذي يعني علوم البلاغة كلها، وليس ما عُرف فيما بعد بعلم البديع الذي هو واحد من علوم ثلاثة يشكل جماعها علم البلاغة وهي: البديع والبيان والمعاني. واختلافهم في إمكانية الاعتماد عليه في إثبات الإعجاز القرآني بين مؤيد ومعارض.

4. الأثر البالغ الذي أحدثه البحث في إعجاز القرآن اعتمادًا على البديع، في تطور النقد العربي القديم، من حيث الأدوات والمصطلحات وطرائق البحث وأساليب النقد.

5. تكامل البحث في البديع القرآني، ونضجه على يدي ابن أبي الإصبع المصري في كتابه (بديع القرآن)، الذي حاول أن يؤصل لنظرية جديدة في إثبات الإعجاز القرآني والبرهنة عليه، تقوم على رصد أنواع البديع بمفهومه العام والشامل الذي يعني علم البلاغة، ودراستها والوقوف على ملامحها الجمالية في النص القرآني، وإثبات تفوقها على سائر أنواع البديع الذي نجده في كلام المخلوقين.

[1]- النحل/90؛ وانظر الحديث عن جمالياتها في: المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص: 79-80.

فهرس المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. ابن المعتز، عبد الله: البديع (296هـ)، تحقيق: أغناطيوس كراتشقوفسكي، ط2، مكتبة المثنى، بغداد، 1399هـ/1979م.
3. ابن جعفر، قدامة: نقد الشعر (337هـ)، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
4. الآمدي: الموازنة بين أبي تمام والبحتري (370هـ)، تحقيق وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
5. البخيتاوي، عماد محمد محمود: مناهج البحث البلاغي عند العرب "دراسة في الأسس المعرفية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
6. بدوي، أحمد أحمد: من بلاغة القرآن، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، د.ت.
7. البغدادي، ابن ناقيا: الجمان في تشبيهات القرآن (485هـ)، تحقيق: عدنان محمد زرزور، ومحمد رضوان الداية، المطبعة العصرية بالكويت، 1387هـ/1968م.
8. الباقلاني: إعجاز القرآن (403هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر. دار المعارف، مصر، د.ت.
9. الجاحظ: الحيوان (255هـ): تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1416هـ/1996م.
10. الجاحظ، البيان والتبيين (255هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
11. الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز (471 أو 474هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.
12. حسين، عبد القادر: القرآن "إعجازه وبلاغته"، مطبعة الأمانة، مصر، د.ت.
13. الرماني، علي بن عيسى: النكت في إعجاز القرآن (386هـ)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، د.ت.
14. سلام، محمد زغلول: أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، ط2، دار المعارف بمصر، 1961م.

15. سلامة، إبراهيم: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950.
16. طبانة، بدوي: البيان العرب "دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى"، ط5، دار العودة، بيروت، 1972م.
17. عباس، إحسان: تاريخ النقد الأدبي عند العرب "نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري"، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د.ت.
18. عبد الرحمن بنت الشاطئ، عائشة: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف بمصر، 1971م.
19. عبد المجيد، جميل: البيان بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية للكتاب، 1998م
20. عرفة، عبد العزيز عبد المعطي: قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية، عالم الكتب، بيروت، 1405هـ/1985م.
21. العسكري، أبي هلال: كتاب الصناعتين "الكتابة والشعر" (395هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، د.ت.
22. المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن (654هـ)، تحقيق: حفني محمد شرف، مطبعة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
23. المصري، ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن (654هـ)، تحقيق: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1383هـ.
24. مندور، محمد: النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، 1972م.
25. هيتو، محمد حسن: المعجزة القرآنية "الإعجاز العلمي والغيبي"، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1409هـ/1989م.
26. يونس، حمود: النقد عند ابن أبي الإصبع المصري، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2010م.